

الفصل الثالث

تعريف بالقضاء والقدر

المبحث الأول

تعريف بالقدر

«القدر مصدر، تقول: قَدَرْت الشيء بتخفيف الدال وفتحها أَقْدِرُه بالكسر والفتح قَدْرًا وَقَدْرًا، إذا أَحطت بمقداره»^(١).

والقدر في اللغة «القضاء والحكم ومبلغ الشيء، والتقدير التروية والتفكر في تسوية الأمر»^(٢).

والقدر في الاصطلاح: «ما سبق به العلم، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه - عز وجل - قَدَّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها»^(٣).

وقال ابن حجر في تعريفه: «المراد أن الله - تعالى - علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته»^(٤).

(٣) عقيدة السفاريني: ٣٤٨/١.

(٤) فتح الباري: ١١٨/١.

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ١١٨/١.

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي: ص ٥٩١.

ونقل السفاريني عن الأشعرية أن «القدر إيجاد الله - تعالى - الأشياء على قدر مخصوص، وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم وجرى به القلم»^(٥).

وهذه التعريفات متقاربة فيما بينها، وهي تفيد أن القدر يشمل أمرين:

الأول: علم الله الأزلي الذي حكم فيه بوجود ما شاء أن يوجد، وحدد صفات المخلوقات التي يريد إيجادها، وقد كتب كل ذلك في اللوح المحفوظ بكلماته، فالأرض والسما وأحجامهما وأبعادهما وطريقة تكوينها وما بينهما وما فيهما كل ذلك مدون علمه في اللوح المحفوظ تدوينا دقيقا وإفيا.

والثاني: إيجاد ما قدر الله إيجاداه على النحو الذي سبق علمه وجرى به قلمه، فيأتي الواقع المشهود مطابقا للعلم السابق المكتوب.

والقدر يطلق ويراد به التقدير السابق لما في علم الله، ويطلق ويراد ما خلقه وأوجده على النحو الذي علمه.

وسئل الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - عن القدر فأجاب شعرا قائلا:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ	وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقتَ العباد على ما علمتَ	ففي العلم يجري الفتى والمُسن
على ذا مننتَ وهذا خذلتَ	وهذا أعنتَ وهذا لم تُعِن
فمنهم شقي ومنهم سعيد	ومنهم قبيح ومنهم حسن ^(٦)

(٥) عقيدة السفاريني: ٣٤٥/١.

(٦) الاعتقاد للبيهقي: ص ١٦٢. شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ٧٠٢/١.

المبحث الثاني

بتعريف بالقضاء

«القضاء: الفصل والحكم. وقد تكرر في أحاديث الرسول ﷺ ذكر (القضاء) وأصله القطع والفصل. يُقال: قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ، إذا حكم وفصل. وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون بمعنى الخلق.

وقال الزهري: القضاء في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقضاء الشيء وتمامه، وكل ما أَحْكَمَ عمله، أو أتمَّ، أو أدَّى، أو أوجب، أو عَلِمَ، أو نُفِّذَ، أو أَمْضِيَ، فقد قُضِيَ، وقد جاءت هذه الوجوه كلها في الأحاديث^(٧).

وللعلماء في التفرقة بين القضاء والقدر قولان:

الأول: القضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدر وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق. يقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: «قال العلماء القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفصيله»^(٨). وقال في موضع آخر: «القضاء الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل»^(٩).

الثاني: عكس القول السابق، فالقدر هو الحكم السابق، والقضاء هو الخلق.

(٧) النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٧٨/٤.

(٨) فتح الباري: ٤٧٧/١١.

(٩) فتح الباري: ١٤٩/١١.

قال ابن بطال: «القضاء هو المقضي»^(١٠) ومراده بالمقضي المخلوق، وهذا هو قول الخطابي فقد قال في معالم السنن: «القدر اسم لما صار مُقَدَّرًا عن فعل القادر، كاهدم والنشر والقبض: أسماء لما صدر من فعل الهادم والناشر والقابض.

والقضاء في هذا معناه الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(١١) أي خلقهن»^(١٢)

وبناء على هذا القول يكون «القضاء من الله تعالى أخص من القدر، لأنه الفصل بين التقديرين، فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع»^(١٣).

ويدل لصحة هذا القول نصوص كثيرة من كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾^(١٤)، وقال: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾^(١٥). وقال: ﴿وَإِذَا قَضَيْتَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١٦).

فالقضاء والقدر - بناء على هذا القول - أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه»^(١٧).

(١٠) فتح الباري: ١٤٩/١١.

(١١) سورة فصلت: ١٢.

(١٢) معالم السنن للخطابي: ٧٠/٧.

(١٣) المفردات للراغب الأصفهاني: ص ٤٠٦.

(١٤) سورة مريم: ٢١.

(١٥) سورة مريم: ٧١.

(١٦) سورة البقرة: ١١٧.

(١٧) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٧٨/٤. وانظر جامع الأصول: ١٠٤/١٠.

المبحث الثالث

أركان الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان، من أقرّ بها جميعا فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملا، ومن انتقص واحدا منها أو أكثر فقد اختل إيمانه بالقدر، وهذه الأركان الأربعة هي:

الأول: الإيمان بعلم الله الشامل المحيط.

الثاني: الإيمان بكتابة الله في اللوح المحفوظ لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة.

الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته التامة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

الرابع: خلقه تبارك وتعالى لكل موجود، لا شريك لله في خلقه. وستتناول هذه الأصول الأربعة بشيء من التفصيل.

الركن الأول

الإيمان بعلم الله الشامل

وقد كثر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تقرير هذا الأصل العظيم، فعلم الله محيط بكل شيء، يعلم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن والمستحيل.

وهو عالم بالعباد وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن منهم من أهل الجنة، ومن منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم، ويخلق السموات والأرض.

وكل ذلك مقتضى اتصافه - تبارك وتعالى - بالعلم، ومقتضى كونه - تبارك وتعالى - هو العليم الخبير السميع البصير.

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (١٨). وقال: ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٩). وقال: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ (٢٠). وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِدِينَ﴾ ، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ (٢١).

وقال الحق مقروا علمه بما لم يكن لو كان كيف سيكون ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَانُهَا عَنْهُ﴾ (٢٢)، فالله يعلم أن هؤلاء المكذبين الذين يتمنون في يوم القيامة الرجعة إلى الدنيا أنهم لو عادوا إليها لرجعوا إلى تكذيبهم وضلالهم.

وقال في الكفار الذين لا يطيعون سماع الهدى ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣).

(١٨) سورة الحشر: ٢٢.

(١٩) سورة الطلاق: ١٢.

(٢٠) سورة سبأ: ٣.

(٢١) سورة النجم: ٣٢.

(٢٢) سورة الأنعام: ٢٨.

(٢٣) سورة الأنفال: ٢٣.

ومن علمه تبارك وتعالى بما هو كائن علمه بما كان الأطفال الذين توفوا صغارا عاملين لو أنهم كبروا قبل مماتهم.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: «سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين»^(٢٤).

وروى مسلم عن عائشة أم المؤمنين قالت: توفي صبي، فقلت: طوي له، عصفور من عصافير الجنة.

فقال رسول الله ﷺ: «أولا تدرين أن الله خلق الجنة والنار، فخلق لهذه أهلا ولهذا أهلا»

وفي رواية عند مسلم أيضا عن عائشة قالت: «دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوي لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه.

قال: أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»^(٢٥).

وهذه الأحاديث تتحدث عن علم الله في من مات صغيرا، لا أن هؤلاء يدخلهم الله النار بعلمه فيهم من غير أن يعملوا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في قوله ﷺ في أبناء المشركين: «الله أعلم بما كانوا عاملين» «أي يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر لو بلغوا، ثم إنه جاء في حديث إسناده مقارب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة فإن الله يمتحنهم، ويبعث إليهم رسولا في

(٢٤) انظر فتح الباري: ٤٩٣/١١ ورواه مسلم بلفظه عن أبي هريرة: ٢٠٤٩/٤ ورقمه: ٢٦٥٩.

(٢٥) صحيح مسلم: ٢٠٥٠/٤ ورقمه: ٢٦٦٢.

عرصة القيامة، فمن أجابه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار» فهنالك يظهر فيهم ما علمه الله سبحانه، ويجزيهم على ما ظهر من العلم، وهو إيمانهم وكفرهم، لا على مجرد العلم»^(٢٦).

الأدلة العقلية على أن الله علم مقادير الخلائق قبل خلقهم:

والحق أن وجود هذا الكون، ووجود كل مخلوق فيه يدلُّ دلالة واضحة على أن الله علم به قبل خلقه، «فإنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل، لأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم بالمراد، فكان الإيجاد مستلزما للإرادة، والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم»^(٢٧).

وأیضا فإن «المخلوقات فيها من الإحكام والاتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم»^(٢٨).

واستدل العلماء على علمه تبارك وتعالى بقياس الأولى: «فالمخلوقات فيها ما هو عالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالما». والاستدلال بهذا الدليل له صيغتان:

«أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين:

أحدهما عالم والآخر غير عالم، كان العالم أكمل، فلو لم يكن الخالق عالما لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع.

(٢٦) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٢٤٦/٤.

(٢٧) شرح الطحاوية: ص ١٤٨.

(٢٨) شرح الطحاوية: ص ١٤٨.

الثاني: كل علم في المخلوقات فهو من الله تبارك وتعالى، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه، بل هو أحق به، ذلك أن كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق أحق به، وكُلُّ نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزه الخالق عنه أولى» (٢٩).

وكل هذه الأدلة يمكنك أن تلمحها في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (٣٠).

ويستدل على علمه - تبارك وتعالى - بإخباره بالأشياء والأحداث قبل وقوعها وحدوثها، فقد أخبر الحق في كتبه السابقة عن بعثه رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وصفاته وأخلاقه وعلاماته، كما أخبر عن الكثير من صفات أمته، وأخبر في محكم كتابه أن الروم سينتصرون في بضع سنين على الفرس المجوس، ووقع الأمر كما أخبر، والإنخبار عن المغيبات المستقبلة كثير في الكتاب والسنة.

الركن الثاني

الإيمان بأن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء

دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء» (٣١).

(٢٩) شرح الطحاوية: ص ١٤٨.

(٣٠) سورة الملك: ١٤.

(٣١) رواه مسلم في صحيحه: ٢٠٤٤/٤. ورقم الحديث: ٢٦٥٣.

ورواه الترمذي بلفظ: «قَدَّرَ اللهُ المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض
بخمسين ألف سنة»^(٣٢).

وفي سنن الترمذي أيضا عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ:
«إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما
كان، وما هو كائن إلى الأبد».

قال أبو عيسى الترمذي: وهذا حديث غريب من هذا الوجه^(٣٣).

واللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق سماه القرآن بالكتاب،
وبالكتاب المبين، وبالإمام المبين وبأَم الكتاب، والكتاب المسطور. قال تعالى:
﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٣٢﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٣٤﴾﴾ وقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴿٣٥﴾﴾ وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ
مُّبِينٍ ﴿٣٦﴾﴾. وقال: ﴿وَالطُّورِ ﴿٣٧﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٣٨﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣٧﴾﴾. وقال:
﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾.

(٣٢) سنن الترمذي (٤٥٨/٤) ورقمه ٢١٥٦. وقال فيه: حديث حسن صحيح.
(٣٣) سنن الترمذي: ٤٥٨/٤. ورقمه: ٢٠٥٥. والحديث صحيح. فالغرابة إنما هي في الوجه الذي
أورده الترمذي في باب القدر، وإلا فإنه قد أورده في كتاب التفسير، وقال فيه: حديث حسن
غريب. وقد أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن الترمذي: (٢٢٨/٢) وذكر أنه
خرجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة وغيرها.

(٣٤) سورة البروج: ٢١ - ٢٢.

(٣٥) سورة الحج: ٧٠.

(٣٦) سورة يس: ١٢.

(٣٧) سورة الطور: ١.

(٣٨) سورة الزخرف: ٤.

الركن الثالث الإيمان بمشيئة الله الشاملة وقدرته النافذة

وهذا الأصل يقضي بالإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون في السموات ولا في الأرض إلا بمشيئته، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد.

والنصوص المصرحة بهذا الأصل المقررة له كثيرة وافرة، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾^(٣٩)، وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾^(٤٠)، وقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾^(٤١)، وقال: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٤٢)، وقال: ﴿ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٤٣).

ومشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن.

فما شاء الله تعالى كونه فهو كائن بقدرته لا محاله، وما لم يشأ الله تعالى إياه لا يكن لعدم مشيئة الله تعالى ليس لعدم قدرته عليه، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمَا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾^(٤٤)، وقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ

(٣٩) سورة التكويد: ٢٩.

(٤٠) سورة الأنعام: ١١١.

(٤١) سورة الأنعام: ١١١.

(٤٢) سورة يس: ٨٢.

(٤٣) سورة الأنعام: ٣٩.

(٤٤) سورة البقرة: ٢٥٣.

أُمَّةً وَاحِدَةً ﴿٤٥﴾، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ ﴿٤٦﴾، وقال ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ ﴿٤٧﴾، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ ﴿٤٨﴾، وقال: ﴿الرَّتْرَ لِي رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ ﴿٤٩﴾، والآيات في هذا كثيرة تدل على عدم وجود ما لم يشأ وجوده لعدم مشيئته ذلك، لا لعدم قدرته عليه، فإنه على كل شيء قدير تبارك وتعالى.

الركن الرابع الإيمان بأن الله خالق كل شيء

قررت النصوص أن الله خالق كل شيء، فهو الذي خلق الخلق وكونهم وأوجدهم، فهو الخالق وما سواه مربوب مخلوق ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ﴿٥٠﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٥١﴾، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ ﴿٥٢﴾، ﴿يَتَأْتِيَا النَّاسَ اتِّقُوا رَبَّكَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ ﴿٥٣﴾، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿٥٤﴾، والنصوص في هذا كثيرة طيبة.

(٤٥) سورة المائدة: ٤٨.

(٤٦) سورة الأنعام: ٣٥.

(٤٧) سورة الأنعام: ١٠٧.

(٤٨) سورة يونس: ٩٩.

(٤٩) سورة الفرقان: ٤٥.

(٥٠) سورة الزمر: ٦٢.

(٥١) سورة يس: ٨١.

(٥٢) سورة الأنعام: ١.

(٥٣) سورة النساء: ١.

(٥٤) سورة الأنبياء: ٣٣.

المبحث الرابع

أفعال العباد ومخلوقه مقدره

لا يخرج العباد وأفعالهم عن غيرها من المخلوقات، فقد علم الله ما سيخلفه من عباده، وعلم ما هم فاعلون، وكتب كل ذلك في اللوح المحفوظ، وخلقهم الله كما شاء، ومضى قدر الله فيهم، فعملوا على النحو الذي شاءه فيهم، وهدى من كتب الله له السعادة، وأضل من كتب عليه الشقاوة، وعلم أهل الجنة ويسرهم لعمل أهلها، وعلم أهل النار ويسرهم لعمل أهلها.

والنصوص التي سقناها فيما سبق تكفي في الدلالة على هذا الذي قرناه هنا، ومع ذلك فهناك نصوص كثيرة أخرى أصرح في الدلالة في هذه المسألة.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٥٥)، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾^(٥٦)، وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٥٧). وقال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٥٨)، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٥٩).

(٥٥) سورة الصافات: ٩٦.

(٥٦) سورة الصافات: ٥٢.

(٥٧) سورة فاطر: ١١.

(٥٨) سورة الأعراف: ١٧٨.

(٥٩) سورة النحل: ١٢٥.

وجاءت أحاديث كثيرة تواتر معناها على أن رب العباد علم ما العباد عاملون، وقدر ذلك وقضاه وفرغ منه، وعلم ما سيصير إليه العباد من السعادة والشقاء، وأخبرت مع ذلك كله أن القدر لا يمنع من العمل، «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

وسنورد هنا بعض النصوص الدالة على ذلك.

النصوص الدالة على تقدير الله أفعال العباد

١ - الأحاديث الدالة على أن أعمال العباد جفت بها الأقلام وجرت بها المقادير:

روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: جاء سراقه بن مالك بن جُعشم قال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: «لا. بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير».

قال: ففيم العمل؟

فقال: «اعملوا فكل ميسر» وفي رواية: «كل عامل ميسر لعمله»^(٦٠).

وروى الترمذي في سننه أن عمر بن الخطاب قال للرسول ﷺ: «يا رسول الله أرأيت ما نعمل فيه، أمر مبتدع أو مبتدأ، أو فيما فرغ منه؟

فقال: فيما فرغ منه يا ابن الخطاب، وكل ميسر، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح^(٦١).

(٦٠) صحيح مسلم: ٢٠٤٠/٤ ورقم الحديث: ٢٦٤٨.

(٦١) رواه الترمذي: ٤٤٥/٤. ورقم الحديث: ٢١٣٥.

٢ - علم الله بأهل الجنة وأهل النار:

وروى البخاري عن عمران بن حصين قال: قال رجل يا رسول الله،
«أَيُعْرَفُ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟»

فقال: نعم.

قال: فلم يعملون؟ قال: كلُّ يعمل لما خلق له، أو يبسر له.

وروى مسلم في صحيحه عن عليّ قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد^(٦٢).
فأتانا رسول الله ﷺ، فقعده وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرَةٌ^(٦٣). فنكس^(٦٤)، فجعل
ينكث بمخصرته^(٦٥)، ثم قال: «ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة، إلا
وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، وإلا قد كتبت شقيّة أو سعيدة».

قال: فقال رجل يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل؟
فقال: من كان من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان
من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة. فقال^(٦٦) «اعملوا فكل
ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة
فييسرون لعمل أهل الشقاوة». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾
فَسَنبِئْهُهُمُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ كُفِرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنبِئْهُهُمُ
لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾^(٦٧)،^(٦٨).

(٦٢) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة.

(٦٣) المِخْصَرَةُ: عصا صغيرة.

(٦٤) نكس رأسه: خفضه.

(٦٥) أي يخط بمخصرته في التراب.

(٦٦) هكذا في الحديث كثر «فقال».

(٦٧) سورة الليل: ٥ - ١٠.

(٦٨) رواه مسلم: ٢٠٣٩/٤. ورقم الحديث: ٢٦٤٧. والحديث رواه البخاري في غير موضع في صحيحه ورواه الترمذي وأبو داود. واللفظ الذي سقناه هنا لمسلم.

٣ - استخراج ذرية آدم من ظهره بعد خلقه وقسمهم إلى فريقين: أهل الجنة وأهل النار:

وأخبرنا رسولنا ﷺ أن الله مسح ظهر آدم بعد خلقه له، واستخرج ذريته من ظهره أمثال الذر، واستخرج منهم أهل الجنة وأهل النار.

روى مالك والترمذي وأبو داود عن مسلم بن يسار قال: سئل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (٦٩).

قال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال: «إن الله خلق آدم، ثم مسح ظهره يمينه، فاستخرج منه ذريته، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية، فقال خلقت هؤلاء للنار، ويعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: ففيم العمل؟

فقال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخل به الجنة».

وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخل به النار» (٧٠).

(٦٩) سورة الأعراف: ١٧٣.

(٧٠) مشكاة المصابيح: ٣٤/١ ورقم الحديث: ٩٥ وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني فيه: رجال إسناده ثقات رجال الشيخين، غير أنه منقطع بين مسلم بن يسار وعمر، لكن له شواهد كثيرة.

وروى الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح إلى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان - يعني عرفه - فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلا قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَرَفِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٧١﴾» (٧٢).

وروى أحمد في مسنده بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى، فأخرج ذريته بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كتفه اليسرى: إلى النار ولا أبالي» (٧٣).

وبين الرسول ﷺ في حديث آخر «أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظِلْمِهِ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمِنْ أَصَابِهِ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمِنْ أَخْطَاءِهِ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ».

رواه الترمذي عن عبدالله بن عمرو وقال فيه: هذا حديث حسن (٧٤).

٤ - كتابة الله لأهل الجنة وأهل النار:

وروى الترمذي في سننه عن عبدالله بن عمرو بن العاصي قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان. فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ فقلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تجربنا.

(٧١) سورة الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣.

(٧٢) مشكاة المصابيح: ٤٣/١.

(٧٣) مشكاة المصابيح: ٤٢/١.

(٧٤) سنن الترمذي: ٢٦/٥. ورقم الحديث: ٢٦٤٢.

فقال للذي في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزداد فيهم، ولا ينقص منهم أبدا.

ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم^(٧٥)، فلا يزداد فيهم، ولا ينقص منهم أبدا.

فقال أصحابه: فقيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟

فقال: سدّدوا وقاربوا^(٧٦)، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل. وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل.

ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما. ثم قال: فرغ ربكم من العباد، فريق في الجنة وفريق في السعير.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح^(٧٧).

٥ - التقدير في ليلة القدر والتقدير اليومي:

بيننا من قبل أن الله قدّر مقادير عباده قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ودلّ الكتاب والسنة على أن هناك تقديران تقدير حولي

(٧٥) أجمل على آخرهم: أي جمعوا أهل الجنة وأهل النار عن آخرهم، وعقدت جملتهم، فلا يتطرق إليها زيادة ولا نقصان.

(٧٦) السداد: الصواب في القول والعمل. والمقاربة: القصد فيهما.

(٧٧) سنن الترمذي: ٤٥٠/٤. ورقم الحديث: ٢١٤١ وهو في صحيح سنن الترمذي للشيخ ناصر: ٢٢٥/٢.

وتقدير يومي، فأما التقدير الحولي ففي ليلة القدر، ففيها يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر، وما يقوم به العباد من أعمال ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٧٨﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٧٩﴾ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

أما التقدير اليومي فهو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٧٩﴾﴾.

روى ابن جرير عن منيب بن عبدالله عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن؟ قال: أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين.

وجملة أقوال المفسرين في الآية «أن الله من شأنه في كل يوم أن يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، ويعز قوما ويذل قوما، ويشفي مريضا، ويفك عانيا، ويفرج مكروبا، ويوجب داعيا، ويعطي سائلا، ويغفر ذنبا، إلى مالا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه»^(٨٠).

٦ - كتابة ما قدر للإنسان وهو جنين في رحم أمه:

ورد في الأحاديث أن الله يرسل ملكا للجنين في رحم أمه، فيكتب رزقه وأجله وشقاءه وسعادته، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبدالله (هو ابن مسعود) قال: حدثنا رسول الله - ﷺ - وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم

(٧٨) سورة الدخان: ٢.

(٧٩) سور الرحمن: ٢٩.

(٨٠) ذكره صاحب معارج القبول: ٣٤٦/١ عن البغوي المفسر.

يجمع في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها^(٨١).

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «وكل الله بالرحم ملكا، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة. فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب ذكر أم أنثى، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل، فيكتب كل ذلك في بطن أمه»^(٨٢).

وروى الترمذي في سننه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟

قال يوفقه لعمل صالح قبل أن يموت»

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح^(٨٣).

(٨١) رواه البخاري، انظر فتح الباري: ٤٧٧/١١. ورواه مسلم: ٢٠٣٦/٤. ورقم الحديث:

٢٦٤٣. والسياق لمسلم. ورواه أبو داود والترمذي أيضا.

(٨٢) رواه البخاري، فتح الباري: ٤٧٧/١١. ورواه مسلم: ٢٠٣٨/٤. ورقمه ٢٦٤٦. والسياق للبخاري.

(٨٣) سنن الترمذي: ٤٥٠/٤. ورقمه: ٢١٤٢.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم له بعمل أهل الجنة» (٨٤).

وعن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة» (٨٥).

ومما يحسن أن يساق في هذا الباب لما فيه من العبرة، قصة الذي أخبر الرسول ﷺ أنه من أهل النار، ففي صحيح البخاري عن أبي حازم عن سهل بن سعد أن رجلا من أعظم المسلمين غناءً في غزوة غزاها مع النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ فقال: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظر إلى هذا.

فأتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشد الناس على المشركين، حتى جرح فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه، حتى خرج من بين كتفيه.

فأقبل الرجل إلى الرسول مسرعاً: فقال أشهد أنك رسول الله.

فقال: وما ذاك؟

قال: قلت لفلان من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه، وكان من أعظمتنا غناءً عن المسلمين، فعرفت أنه لا يموت على ذلك، فلما جرح استعجل الموت فقتل نفسه.

(٨٤) رواه مسلم: ٢٠٤٢/٤ ورقم الحديث: ٢٦٥١.

(٨٥) رواه مسلم: ٢٠٤٢/٤.

فقال النبي ﷺ عند ذلك: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة. ويعمل عمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم»^(٨٦).

(٨٦) فتح الباري: ٤٩٩/١١ ورقم الحديث: ٦٦٠٧.